

الديكاميرون پيچوفاني بوكاشيو

بقتلم
الأستاذ فوزي صالحين

ورغم أن بوكاشيو لم يعن حينذاك بأن يقرن ذلك العمل باسمه، إلا أن الديكاميرون كان السبب المباشر فيما أحرزه بوكاشيو من شهرة واسعة ، فكان الثالث في سجل النهضة الأدبية في إيطاليا ، وكان السابقان : دانتي الجيجيري ، وبترا رك .

إن صدور مجموعة من القصص القصيرة الممتازة في عصرنا الحاضر ، كثيراً ما يثير الجدل ، وقد يتحيز النقاد إلى هذا الجانب أو ذاك ، ونتيجة الجدل في الأغلب أن يعنى القراء بالكتاب الذى صدر فيتهاقون على اقتنائه ، ويخلون إلى أنفسهم لينعموا بقراءته ، ويستمتعوا بما يضمه من نبضات إنسانية ، ويعيشوا مع أبطاله مشاركين فيما يمرون به من أزمات ، أو ما يحققون من أعجاز وانتصارات ، ولكن شيئاً من هذا لم يكن يحدث على عهد بوكاشيو ، فلم تكن الصحف قد عرفت بعد ، وكان عدد المسارح قليلاً ، والكتب التى تصدر أقل ، ولا شك في أن الحياة كانت قاتمة مملّة ، فاذا تصورنا أهل قرية في ذلك الحين عندما يحل الظلام ، لوجدناهم ينامون مع الغروب أو بعده بقليل ، ولكن أمراً واحداً كان يحجب إليهم السهر بعدعناء يوم طويل ، ذلك عندما يتسامعون عن وصول قاص إلى القرية ،

ولد الكاتب الإيطالى الكبير جيوفانى بوكاشيو في أوائل القرن الرابع عشر الميلادى في قرية سير تالدو على بعد عشرين ميلاً من فلورنسا ، ويعتبر أحد المبشرين بعصر النهضة الأوروبية ، بل إن ميلاد القصة القصيرة الحديثة يمكن أن يؤرخ بظهور الديكاميرون أو الأيام العشرة لبوكاشيو .

أتم بوكاشيو الديكاميرون فيما بين عامى ١٣٤٨ ، ١٣٥٣ م ، مستوحياً فكرته من وباء الطاعون الذى حل بفلورنسا عام ١٣٤٨ ، يصدر بوكاشيو كتابه بوصف موثر لذلك الوباء المدمر الذى كان يفتك بالسكان فتكاً ذريعاً ، حتى يمهّد إلى اجتماع شمل الأبطال الذين تروى القصص على لسانهم ، وهم سبع فتيات حسان ، وثلاثة شبان فروا إلى مكان آمن للنجاة من الطاعون ، وأخذوا يسلمون أنفسهم طوال عشرة أيام برواية القصص ، فيروى كل واحد من عشرتهم قصة كل يوم ، بحيث يتألف من الأيام العشرة مائة قصة هى قوام ذلك الكتاب الخالد الذى أمتع القراء في العالم لمدة ستة قرون ، ولا يزال حتى يومنا هذا مادة ممتعة تحتل مكانة ممتازة في جميع آداب العالم بعد أن ترجم إلى مختلف اللغات .

وكان القاصون المنجولون في ذلك العهد يلقون الحفاوة والتكريم حيث ينزلون ، يلتف من حولهم الناس في إعجاب وتقدير ، ويترقبون أخبارهم في لهفة وتشوف ، ويطير صيت البعض منهم عندما يبلغ شأواً بعيداً في قدرته على القصص ، وامتلاء جعبته بالروايات الممتعة وأخبار العالم الخارجى ، وكان راوية القصص المحترف لا يستقر بمكان ، فهو لا يفتأ يسافر جرياً وراء القصص الجديد الذى يعتبر زاده في الحياة ، يجمعه مجرد نتف وأقاصيص ليصوغه في القالب الفنى الذى يرضى أذواق الجمهور من أهل القرى والمدن ، ينتقى لكل مجال ما يسليه ويمتعه ، وبهذه الوسيلة استطاع بعض رواة القصص أن يكتسبوا شعبية ضخمة ، وأن يصبحوا خبراء في فن التأثير على نفوس السامعين ، ومن ثم لا يوجد أى شكل من الفنون الأدبية كالقصة كان له هذا المنبع الديمقراطى الأصيلى .

وكان بوكاشيو واحداً من أولئك الرواة الذين تميزوا بالحس المرهف ، والقدرة على استيعاب الأحداث العادية وصياغتها في القالب الفنى الممتع ، فليس له الفضل في اختراع قصة واحدة من الديكاميرون ، وإنما كان يروى القصص التى جمعها في أسفاره في أسلوب رصين من اللغة الإيطالية المنتقاة .

يحيط بحياة بوكاشيو بعض الغموض ، وهو ابن غير شرعى لبوكاشيو دى تشيلينو أحد تجار قرية سيرتالدو ، ولد عام ١٣١٣ ، وأمضى سنين شبابه في نابولى (١٣٢٥ - ١٣٤٠) وبعد أن قضى زهاء عشر سنوات في التجارة ودراسة القانون ، التحق ببلاط روبرت دانجو ، وهناك التقى بكثير من الكتاب الذين شجعوه على دراسة الآداب القديمة ، فقرأ لفرجيل وأوفيد وغيرهم ، واطلع على بعض الروايات الفرنسية ، ثم وقع في حب ماريانا داكويانو - وهى ابنة غير شرعية لروبرت دانجو - وكانت مصدر إلهام لبوكاشيو في أغلب أعماله ، وهى التى عرفتها الأجيال التالية في

شخصية فيامبتا التى حفل بها إنتاج بوكاشيو في الشعر والنثر .

عندما استدعى بوكاشيو إلى فلورنسا عام ١٣٥٠ خصص أغلب وقته للأدب ، وكان قد فرغ في ذلك الحين من كتابة ما يقرب من نصف الديكاميرون الذى نشره بعد ذلك في عام ١٣٥٣ أو ١٣٥٤ ، وكتب له الخلود منذ الفجر الأول لمولده ، أما السبب الرئيسى لذلك النجاح الكبير ، فهو ما تميز به الديكاميرون من حيوية خارقة ، بحيث يمكن أن يطلق عليه بجدارة « كتاب الشعب » ، فقد أحبه الناس في عهده ، كما لقي الإعجاب جيلاً بعد جيل حتى يومنا هذا ، وكان من أسباب نجاحه الأخرى أنه يعرض في كثير من القصص للعلاقة بين الجنسين عرضاً سافراً ربما لاحت فيه الإباحية ، والكشف عن بعض الدقائق التى تجافى الذوق العام في عصرنا ، إلا أن ذلك لم يكن عيباً على عهد بوكاشيو ، فقد كانت تلك القصص تروى على مسمع من السيدات دون أن تتضرع وجوههن أو يشعرن بما يחדش الحياء ، ومع هذا فالديكاميرون يزخر - كما سنرى من الشواهد التى نعرض منها بالقدر الذى يسمح به المحال - بالقصص العاطفى الرقيق ، والمشاعر الإنسانية النبيلة التى تلمس شغاف القلوب ، وتحلق بالإنسان إلى سموات النبل والطهارة .

وخلال الفترة التى قضاها بوكاشيو في فلورنسا ، أوفد في أكثر من مهمة دبلوماسية ، حتى إذا كان ربيع عام ١٣٦٢ مر الأديب الكبير بأزمة دينية غيرت الكثير من أفكاره ومعتقداته السابقة ، وقام بتغيير كثير من آرائه الأخلاقية متأثراً بصديقه بترارك ، ومنذ ذلك الحين خلت أعماله من الشئ الكثير الذى كان يتميز به العمل المبكر من الإباحية ، ودعى في عام ١٣٧٣ إلى فلورنسا ليلقى سلسلة من المحاضرات عن الكوميديا المقدسة لدانتى ، فقد كان بوكاشيو من أشد الكتاب إعجاباً بصاحب الكوميديا المقدسة ، ولكن المرض

اضطره عام ١٣٧٤ إلى العودة إلى مسقط رأسه في سيراتالديو ، ثم مات في السنة التالية .

وقبل أن نستعرض بعض الشواهد من الديكاميرون ربما كان من الأنسب أن نعرض صورة للأدب الإيطالي الذي تزعم بوكاشيو قادته ، فقد كتب باللغة القومية بعد أن كان الكتاب السابقون يتخذون اللاتينية أداة للتعبير .

لمحة عن الأدب الإيطالي على عهد بوكاشيو

ظلت اللغة الإيطالية بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية قريبة من اللاتينية ، وكان النشاط الأدبي الذي ظهر في ذلك الحين يعتبر امتداداً لتقاليد الثقافة الرومانية معبراً عنه باللاتينية ، وكان القليل من الإنتاج الذي ظهر باللغة القومية في الفترة السابقة لمطلع القرن الثالث عشر ضئيلاً في قيمته وأهميته الفنية ، ومن بين آثار تلك الفترة بعض القصائد الهزيلة ، والمواعظ الدينية في القرن الثاني عشر لغتها خليط من لهجة شمالي إيطاليا واللغة الفرنسية ، وقد وجدت الخطوط الرئيسية الثلاثة المميزة لحضارة غربي أوروبا : الجنس ، والمغامرة ، والحرب ؛ طريقها إلى التعبير في أدب جنوب فرنسا (البروفانس) في الأفكار التي تعبر عن الحب والفروسية والحروب الصليبية . وقد حظت الحملة الصليبية (١٢٠٩ - ١٢٢٩ م) حضارة البروفانس الأرستقراطية . وتفرق الشعراء إلى المناطق الأخرى ، ومن بين تلك المناطق صقلية ومقاطعات الشمال الإيطالي . وفي هذه الأخيرة قام الشعراء الرحالة الإيطاليون - التروبادور - من أمثال سورديللو دي جيونو وسيجالا بمحاكاتهم ، وكانت أول محاكاة شعرية في اللغة الإيطالية القومية في بلاط فردريك الثاني بصقلية (١٢٢٥ - ١٢٥٠) . وعالج شعراء المدرسة الصقلية موضوعات الحب في القصود ، والحملات الصليبية ، ونذكر من بين هؤلاء الشعراء جياكومينو دالپوليا ، ورينالدو داكويونو ، وكانت

لغة التعبير هي اللهجة الصقلية كأساس ، ولكنها تستعير كثيراً من العبارات اللاتينية ولغة البروفانس ، ولكن جميع هذه المحاولات كانت فجوة ، وأثر الاقتباس ملموس فيها .

أما الشمال الإيطالي في ذلك الحين ، فلم تحاك اللغة القومية الدارجة فيه شعر البروفانس الغنائي ، واكتفى بمحاكاة شعر الملاحم الذي كان يتميز به الشمال الفرنسي خلال القرن الثالث عشر ، ومن بين القصائد التي سلكت مسلك المنهج الفرنسي : غزو أسبانيا وأسر بامبيلون .

وفي وسط إيطاليا ، في أعقاب نهضة مقاطعة أومبريا ، قامت حركة أدبية محلية يتزعمها فرانسيس داسيزي وأتباعه وقد كتب فرانسيس باللهجة الأومبرية ، كما انغمس عدد من الكتاب في كتابة الموضوعات الدينية وكان أظهرهم ياكوبوني داتودي (١٢٣٠ - ١٣٠٤) ، ولكن هذه المحاولات للتعبير باللهجات المحلية انتهت بظهور حركة أدبية في توسكاني يتحكم فيها تياران رئيسيان : عاطفة الحب التي تميز بها أدب البروفانس . ونظرة التقديس للمرأة وعبادة مريم العذراء . ورغم أن الحركة الأدبية الجديدة قد حافظت على تقاليد الحب السالفة ، والتي تجعل من الحب قوة غلبة تقهر العاشق وتضعه تحت رحمة معشوقته مع كل ما يصاحب ذلك من أحاسيس بالسعادة والشقاء ، إلا أنه في نفس الوقت أعاد تفسيرها كرمز للحب الإنساني المثالي الذي يتمثل في حب العذراء البتول ، وكانت اللغة التي تستخدم في تلك القصائد تنطق بعناية شديدة ، وتستعير نسبة مرتفعة من الجمل اللاتينية ولغة البروفانس ، وقد أطلق على هذا اللون من الشعر « الأسلوب العذب الجديد » وكان من أظهر أتباع الأسلوب الجديد الشاعر جويدو جوينيزيلي (١٢٤٠ - ١٢٧٦) الذي فاق شعره أسلوب المدرسة الصقلية في عذوبة الأسلوب ورقة المضمون ؛ وقرب نهاية ذلك

القرن اتجه عدد لا يستهان به من الشعراء الإيطاليين إلى محاكاة جوينزيلي ، ثم تبعهم الكثيرون في فلورنسا ممن أضافوا الجديد إلى ذلك الأسلوب ، وكان على رأس هؤلاء دانتى أليجييري وجويدو كافالكانتى ، ودينو فريسكو بالدى ، وظل الأسلوب العذب الجديد يتحكم في الشعر الغنائى فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر .

انتعش الشعر التعليمى والبلاغى فى تلك الفترة متأثراً بصفة خاصة بفرنسا والأدب الكلاسيكى القديم ، وفى تلك الفترة كتب برونيتو لاتينى معلم دانتى أهم أعماله (كتاب الكنز) ، كتبه نثراً بالفرنسية ، كما ألف كتاباً تعليمياً آخر عن الشعر الإيطالى أسماه تريزوريتو « الكنز الصغير » . كما تأثر كتاب آخرون بالأدب الفرنسى المعاصر . وعندما ظهرت الكوميديا لدانتى والتي أطلق عليها بعد ذلك الكوميديا المقدسة ، غطت على جميع الأعمال السابقة .

وفى مشارف القرن الرابع عشر أكدت توسكانى - ومدينة فلورنسا بصفة خاصة - سيادتها فى مجال الأدب ، ويرجع السبب الرئيسى فى ذلك إلى العوامل الاقتصادية التى كانت تسودها حينذاك ، فقد أصبحت فلورنسا فيما بين ١٢٥٩ و ١٣٤٨ م مركزاً رئيسياً للصناعة والنشاط الاقتصادى ، وازدهرت اللغة والأدب فيها تمشياً مع ازدهار أحوالها الاقتصادية ، وقد استقرت دعائم نهضتها الأدبية على يد الثلاثة الكبار : دانتى ، بترارك ، بوكاشيو .

ويعتبر دانتى (١٢٦٥ - ١٣٢١) فى الحقيقة أول المبشرين بالنهضة حين كتب الكوميديا المقدسة باللغة الإيطالية ، أما بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) فقد اشتهر بحبه للجمال وعنايته بالآثار القديمة ، غير أنه ظل يكتب باللاتينية ، وأشهر كتبه « الإنيابة » تقليداً لفرجيل ، على حين كان تلميذه بوكاشيو صاحب الديكاميرون يكتب باللغة الإيطالية .

وقد كان بوكاشيو فى مطلع حياته شاعراً ، كتب أغاني للحب ، وبعض القصائد باللاتينية ، ثم كان حبه لماريا داكوينى مصدر إلهام للكثير من إنتاجه من الشعر والقصص العاطفى منه « فيلكولو » وهى قصة مستوحاة من فلوار وبلاشيفلور الفرنسية ، وتسيدى ، وفيلو ستراتو التى استوحى منها تشوسر « ترويلس وكرايزيد » واكتشف بوكاشيو وهو فى منتصف العمر موهبته الأصيلة ، فتخلّى عن الشعر البلاغى والأساطير ، ليغير عن الحياة الواقعية فى بساطتها ، وأخرج كتابه الخالد « الديكاميرون » ، وهو وإن كان قد ألف كتابه مرضاة لحيية قلبه فيامتيا ، ولتسلية ملك وملكة نابولى ، إلا أن الكتاب أصبح تسلية للشعب الإيطالى كله ، ثم لكافة الشعوب .

مقدمة الديكاميرون

يستهل بوكاشيو الديكاميرون بفصل افتتاحى يمهّد به للقصص المائة التى تروى على لسان الأبطال الذين اختارهم ، ويصف كيف اجتاحت وباء الطاعون مدينة فلورنسا عام ١٣٤٨ فأصبحت معزولة عن العالم بعد ازدهارها ، وكيف تفشى فيها المرض بحيث أصبح الموت هو القدر المحتوم لكل من ابتلى بالداء الوبيل ، فما تكاد البقع القرمزية تظهر على البدن حتى يموت المريض فى غضون ثلاثة أيام .

« عم المدينة الرعب والكرب والفوضى ، وأهملت كافة القوانين من وضعية وسماوية ، وأصبح كل فرد من أهالى فلورنسا يفعل ما يشاء ، واقتحم سفلة القوم قصور الأثرياء ليعيشوا عيشة ترف ورخاء ، زاعمين أنه ما دامت النجاة من الطاعون أمراً غير مستطاع ، فلا أقل من أن يلقوا الموت وهم يرفلون فى حلل النعيم . وفضل البعض الآخر أن يحيا بمعزل عن العالم ، فأغلقوا الأبواب على أنفسهم ليعيشوا على الطعام المخزون وهجر بضعة آلاف من السكان بيوتهم ليعيشوا فى

الريف تاركين وراءهم كل ما يملكون من متاع و ثروات وأهل وأحباب .

« كان الأخ في ذلك الحين يفر من أخيه ، والزوجة من زوجها ، والأشد من ذلك قسوة وأمر ، أن الآباء في غمرة الهلع الذى ساد البلاد كانوا يهجرون فلذات أكبادهم . كان من الخطر الداهم أن يسير الناس في الطرقات ، لأنهم كانوا يروعون بمنظر جثث الضحايا التعساء الذين صرعههم المرض ، ولقد شاهدت الكلاب بعيني رأسي وهي ترد موارد الهلاك لجرد أنها لمست الثياب المهلهلة للموتى .

« فيما بين شهرى مارس ويوليو لقي مائة ألف من أهل فلورنسا حتفهم ، رغم أنه لم يكن من المتوقع أن يبلغ عدد سكان المدينة هذا الرقم الضخم قبل أن يدممها الوباء ، ولكن نفسى تطير شعاعاً عندما تعدد ما حل بمدينةنا من ألوان الشقاء ، ومن ثم سوف أخو من الذاكرة كل ما يمكن محوه ، وأكتفى بالإشارة إلى أنه في الوقت الذى كادت تخلو فيه المدينة من أهلها ، التقت في صحن كنيسة سانت مارى مساء أحد أيام الثلاثاء سبع فتيات حسان ، وهن يرفلن في ثياب الحداد ومن هذا العدد القليل كان يتألف كل الجمهور المحتشد للعبادة .

كانت كل واحدة من الحسان تمت بصلة إلى الأخرى ، إما عن روابط الدم أو أواصر الصداقة الوثيقة ، وكانت بامبينا كبراهن تبلغ الثامنة بعد العشرين من عمرها ، أما فياميتا فقد كانت تصغرها بقليل ، في حين كانت فيلومينا وإميليا ولوريتا ونيغيلي تصغرنهما بسنوات ، أما إيليزا أصغرهن فلم تكن قد تجاوزت العام الثامن عشر من عمرها .

وعندما انتهت الطقوس ، انتحت الفتيات ركناً من الكنيسة وبدأن يتشاورن فيما ينبغي لهن أن يقدمن عليه بعد أن أصبحن وحيدات في الحياة ، قالت بامبينا :

— إننى أنصح بأن نهجر فلورنسا ، لأن الحياة في المدينة باتت شديدة الخطر ، ليس لجرد أن الوباء قد داممها ، وإنما لأن الرجال قد فقدوا صوابهم ، وأصبحوا يعيشون فساداً في الطرقات ، ويقتحمون البيوت دون وازع من القانون ، والأفضل لنا أن نلجأ إلى الريف حيث الهواء النقى ، والتلال المعشوشبة ، وحقول القمح الناضج التى تذكرنا بالحياة ، بدلاً مما يطالنا في جدران المدينة من هجران وأحزان .

وقالت فيلومينا معقبة :

— إننى أشك في أن تتحقق لنا هذه الأمنية بغير أن يتقدم لمساعدتنا بعض الرجال .

وصاحت إيليزا محتدة :

— من أين يأتينا مثل هذا العون وقد أصبح كل من يمت إلينا بصلة القربى من الرجال في عداد الأموات بينما القلة التى سلمت من الموت قد آثرت الفرار ؟

وبينما هن يتداولن في الأمر ، دلف إلى الكنيسة ثلاثة فرسان في ربيع العمر هم بامفيلو وفيلوسترانو وديونيو ، وقد جاءوا إلى الكنيسة يبحثون عن أسرار قلوبهم وكن بالمصادفة نيفيلي ، وبامبينا وفيلومينا .

وقالت بامبينا وقد افتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة :

— انظرن ، إن الحظ لا يزال في جانبنا ، لقد ألقى في طريقنا ثلاثة شبان أجلاء لا أشك لحظة في أنهم يجيئون مطلبنا لو أننا دعوناهم .

وأنبأت بامبينا الفرسان بخطتها ، راجية أن يقدموا العون لتنفيذها ، وظن الفتية في أول الأمر أن المسألة لا تخرج عن الدعابة ، ولكنهم سرعان ما قرروا مصاحبة الفتيات عندما تبين لهن صدق ما عقدن العزم عليه ، لهذا لم تكذبوا كبير الصباح تلوح حتى تحرك موكب الفتيات الحسان تصاحبهن وصيفاتهن ، والفرسان مع أتباعهم من الرجال ، مدبرين عن فلورنسا ، وعندما قطعوا من الرحلة ميلين ، كانوا قد بلغوا المكان المتفق عليه ، وهو عبارة عن تل يقع بمعزل عن الطريق ،

— والآن يا بامفيلو ، أرجوك أن تروى قصتك »
إلى هنا تنتهى المقدمة الممتعة التى يمهدها بوكاشيو
للقصص المائة ، والتى تتم روايتها على ألسن الرواة فى
عشرة أيام ، بحيث لا تمر الدورة فى كل يوم حتى
يشارك كل منهم بقصة .

وقبل أن نورد نماذج منتقاة من تلك القصص ،
لا نحب أن نغفل جانباً له اعتباره بين ذلك القصص
الإنسانى الخالد ، ذلك الذى يتعرض للعواطف الإنسانية
الجائعة فى غمرة توقدها ، حينما تستسلم النفس الإنسانية
إلى الضعف ، وتغلب عليها الغريزة المتدفقة ، وتنكشف
الستر عن المتلفعين بالدين ، فيظهرون كالبشر العادى
سواء بسواء ، ويستجيبون للوعاج الحب وصباة
العشاق ، وتنكشف فى هذا اللون من القصص موهبة
بوكاشيو الضخمة عندما يهبط بالقصة من أبراج القصور
إلى أكواخ السوق وصوامع النساك ، فيجلوها بمسحة
من الواقعية التى أكسبتها تلك الشهرة وذلك الذبوع .

من القصص الإنسانى والمرح

نلمس فى كثير من القصص التى يضمها الديكاميرون
النبضات الإنسانية الحية ، والتحليل الدقيق للمشاعر
الإنسانية النبيلة ، وقد اخترنا نموذجين أولهما للقصة
الإنسانية ، والآخر للقصة المرحية ، نلخصهما فى عمالة
حتى يمكن أن نقدم نماذج أخرى كاملة ، محاولين عدم
الإخلال بالبناء الفنى للقصتين :

فى قصة « الأب القاسى » نجد تاندرىد أمير ساليرونو
يزوج ابنته سيجيزموند وهى فى مقتبل العمر من زوج
لا تكاد تذوق معه أول متع الحياة حتى يختطفه الموت ،
فتعود إلى قصر أبيها ، وينسى الأب فى غمرة حبه وخانه
وعطفه على الابنة أن يفكر لها فى زواج جديد يعصمها
من الزلل ، ولا تستطيع سيجيزموند أن تقاوم الرغبة
بعد أن تحرك فى أعماقها ما كان ساكناً قبل الزواج ،
فتختار لنفسها عشيقاً من بين رجال القصر ، وهو

تكثر فيه الأشجار الباسقة ، ويتربع على قمته قصر
منيف ، يحيط به فناء متسع كالروضة الفيحاء ،
وبداخله الأبناء والغرف الفسيحة التى تزينها الرسوم
الرائعة ، ومن حوله تنتثر المروج الخضراء ، وحدائق
ذوات رونق وبهاء ، ونافورات يتفجر منها الماء .

وعندما اطمأن الجميع إلى أن كل شئ فى القصر
قد أعد بنظام لاستقبال الوافدين ، قامت الحسان بنزهة
فى الحديقة يصاحبهن الفرسان ، وهم ينشدون أهازيج
الحب ، وينظمون أكاليل الزهور ، حتى إذا ما بلغت
الساعة تمام الثالثة أعدت المائدة فى قاعة الاحتفالات ،
وعندما فرغ الجميع من تناول الطعام ، أخذ ديونيو
ينفخ فى قيثارته بينما تعزف فياميتا على العود ، وقد
انتظم بقية الجمع فى حلقة للرقص على أنغام الموسيقى ،
وعندما انتهوا من الرقص أخذوا يغنون ، وهكذا
استمروا فى الرقص والغناء حتى حل الليل ، وحينئذ
انسحب الفرسان إلى غرفهم ، وكذلك فعلت الفتيات
بعد أن اتفق الجميع على أن تكون باميينا منذ الغد ملكة
على الحشد ، هى التى تشير بالرأى وتشرف على الطعام
والحفلات .

وفى صباح اليوم التالى ، أرسلت الملكة باميينا إلى
الجميع تدعوهم إلى الاجتماع فى تمام الساعة التاسعة ،
قائلة إن النوم خلال ساعات النهار مناف للصحة ،
وقادتهم إلى مرج كثير العشب تظله الأشجار العالية ،
وتابعت حديثها قائلة :

— من الحقاقة أن نفكر فى التريض مادامت الشمس
قد علت كبد السماء ، والجو مشبع بالحرارة وليس
يسمع غير أصوات الجنادب بين أشجار الزيتون ،
لهذا دعونا نجلس فى حلقة لروى القصص ، وعندما
تم الدورة تكون حرارة الشمس قد هبطت ، فيتاح لنا
حينئذ أن نسلى أنفسنا على خير ما نحب .

وتابعت باميينا حديثها قائلة للفارس الجالس على
يمينها :

شاب من أصل متواضع يسمى- جيشارد ، وتتخذ الأرملة الحسنة كل أسباب الحيلة حتى لا يفتضح السر ، ولكن الأب العجوز يتسلل ذات يوم إلى مخدع ابنته ليتبادل معها الحديث ، وعندما يجد الحجرة خالية ، والستر مسدلة على السرير يجلس على مقعد تخفيه الستر بجوار السرير ، ويستسلم إلى الكرى بينما يعود العاشقان في غفلة من عيون الرقباء ، ويستيقظ الأب على أصوات تدغدغ حسه ، وحركات تثير سخطه وغضبه ، ولكنه يكتم غيظه وينسحب في هدوء ، ثم يدع الحراس يقبضون على جيشارد دون أن تعلم ابنته ، ويذهب الأب العجوز إلى حجرة ابنته ويفصح لها عن اكتشافه قائلاً إنه لم يكن يتصور أن ابنته تنحدر إلى ذلك الدرك مع نكرة من رجاله ، بينما يوفر لها كل ما يستطيع من حب وحنان ، ويخبرها أنه أجل البت في مصير العاشق حتى يسمع دفاعها ، وينكس الأب رأسه في مذلة وينخرط في البكاء كالأطفال ، ولا تحاول الابنة أن تطلب الرحمة أو تستدر العطف ، وتعترف اعترافاً صريحاً وتقول :

« لقد أحببت جيشارد وسأضل وفيه لحبه ما حييت ، وإن كنت أعلم أن ذلك العمر لن يطول ، وإذا كان للحب أن يعمر بعد الموت فإن هذا ما سيحدث من جانبي . إن فضيلة هذا الشاب وقلة العناية التي نظرت بها إلى موضوع زواجي ، كان لها أعمق الأثر في نفسي ، وإذا كنت يا أبي لم تخلق من حديد أو رخام فلا بد أن تفكر في أن هذا هو حال ابنتك أيضاً ، ويلبغى أن تذكر في هذه السن الطاعنة ما كان يزخر به قلبك في سني الشباب من عواطف جياشة ؛ إنني ما زلت في ربيع العمر ، وقد حرك في الزواج المبكر ما كان خامداً من العواطف ، بحيث لم يعد في مقدوري أن أتجاهل الغريزة الصارخة ، لقد كانت تلك الرغبات ولا شك هي التي أشعلت في قلبي جذوة الحب المتعطش للارتواء ، وعندما أيقنت ألا سبيل إلى مقاومة رغباتي ،

اتخذت كل أساليب الحيلة كي أغلف حبي بستر من الشرف ، وهكذا جمعت بين إشباع الرغبة والحفاظ على السمعة ، وإذا كنت قد فضلت جيشارد على غيره من رجال القصر ، فإنما كان ذلك بعد روية وطول تفكير ، ويبدو أنك كنت تتسامح لو كان حبي لرجل نبيل الأصل ، ولكن الذنب ذنب الحظ وليس الخطأ من تدبري ، إن الحظ أعمى وهو مختار أقل الناس استحقاقاً له ، بينما يتخلى عن أولئك الذين تسمو عواطفهم ويستحقون أوفى تقدير .

« ارجع إلى الأصل لتجد أننا جميعاً أبناء نفس الأب ، وأنا خلقنا من طينة واحدة ، ثم تفرقت بنا السبل في الحياة ليكون هناك نبيل الأصل ووضيعة ، وكائناً ما يكون الخلل الذي دفع الضمير الإنساني إلى فرض هذا القانون الجائر ، فإنه لا تزال هناك نفوس سامية لا تزن الأمور بهذا الميزان ، ووفقاً لهذه المقاييس الرفيعة تستطيع أن تقول إنه بقدر ما تتعدد الفضائل في الفرد يكون سموه وعلو قدره ، ومن ثم يعتبر جيشارد أعرق في السمو والنبالة من جميع رجال قصرك » .

واختتمت سيجيزموند حديثها قائلة أنها تترك لأبيها أن يقضى في مصير جيشارد بما يشاء ، ولكنها ستنفذ الحكم عينه على نفسها طائعة ، طالبة من أبيها ألا يبيكها حينئذ .

وفكر الأب العجوز ثم هداه تفكيره إلى قتل جيشارد وانتزاع قلبه من صدره ، وأرسل لها القلب فوق صحيفة مع رسول يحمل هذه الرسالة :

« يبعث إليك والدك الأمير بهذه الهدية لتعزيك عن فقد أشد ما تحبين » .

وأدركت سيجيزموند ما تحمله الرسالة من معنى ، وأسرعت إلى زجاجة من السم كانت قد أعدتها وتجرت كل ما فيها ، وعندما علم الأب بالأمر أسرع إليها ، وقالت سيجيزموند بضعف وهي تغالب سكرات الموت :

— إذا كان قلبك لا يزال ينبض بحبي ، فاني أتقدم إليك بآخر رجاء ، إنني لا أطلب منك سوى السماح بأن أدفن علانية بجوار جيشارد حيث أبيت على أن أعيش سعيدة بجواره في الخفاء .

وخفت الأب العبرات فلم يستطع أن يجيب ابنته المحتضرة بكلمة واحدة ، ولم يكذ الأب يبارح الحجرة حتى لفظت سيجيزموند آخر أنفاسها وهي تضم قلب العاشق إلى صدرها ، وندم الأب العجوز على قسوته ولكن بعد فوات الأوان ، وسمح لجثة العاشقين بأن تدفنا في مقبرة واحدة .

وفي قصة « موعده مع الكونتيسة » نرى لونا آخر للروح المرحلة التي تسود كثيراً من قصص الديكاميرون . . . أتم السيد سيمون دراسة الطب في بولونا ، وعاد إلى فلورنسا ليباشر عمله كطبيب ، ولكن ما حصله من العلم كان أقل مما يملكه من السذاجة والصفات الطيبة ، وتعرف سيمون على رسامين شابين هما برونو وبافلاماكو ، وكان الشبان يعيشان عيشة مرح وترف لا تتناسب مع مظهرهما ، ووطد سيمون علاقته أول الأمر مع برونو ، وأخذ يستميله بالهدايا ، ويدعوه إلى الولائم الحافلة بالطعام والشراب ، وعندما أدرك الرسامان سذاجة الطبيب قررا أن يتخذا منه مادة للتسلية والضحك ، وعندما ألح سيمون على برونو كي يشركه معه في أسرارهم ، أنبأه الرسام الخبيث أنه عضو مع صاحبه بافلاماكو في أحد النوادي التي يقوم على خدمتها ساحر يجيب كل مطالب الأعضاء ، سواء أكانت من فاخر الثياب ، أو أطيّب ألوان الطعام والشراب ، أو المتع مع الحسان الكواعب من مختلف البقاع ، وأضاف برونو أنه يفضل بصفة خاصة أن يدعو له الساحر ملكة إنجلترا أو فرنسا أو محظية الخان قائد التتار ، وألح سيمون على الرسام كي يقنع أعضاء النادي بقبوله واحداً منهم وهو صاحب الصوت الرخيم والمواهب الخارقة ، واستمهله برونو بعض الوقت ليمهد لقبوله

عضواً في النادي ، خاصة وأن النادي ينتخب كل شهر رئيساً ونائباً للرئيس يطاع لهما كل أمر ، وتجاب لهما كل الرغائب ، وقد حل الدور على بافلاماكو ليكون الرئيس ، وعليه ليكون نائباً للرئيس ، ونصحه الرسام أن يتملق بافلاماكو ويسترضيه بالمنح والعطايا ، ولم يبخل سيمون على الرسام الشاب حتى تم الاتفاق بعد إلحاح على أن تتخذ المراسم الخاصة لقبوله عضواً في النادي ، يستمتع بما يستمتعون ، ويقضى من الأوقات السيدة مثلاً يقضون ، وأن تتاح له فرصة اللقاء مع الكونتيسة الشابة الحسنة التي صورها له برونو وأبدع التصوير .

اتفق معه برونو على أن يرتدى أفخر ثيابه وينتظر في مكان معين من الجبانة عندما ينتصف الليل ، حتى حتى إذا ما رأى شيطاناً له قرون يزجر ويصخب ويلوى عنقه ويثنيه مهدداً متوعداً ، تماسك سيمون وتجلد ولم يبد عليه أنه قد شعر بأدنى خوف ، على ألا يذكر على لسانه اسم الله أو القديسين حتى لا تفسد الخطوة ، حتى إذا ما هدا الشيطان ركب سيمون ظهره ، وترك للشيطان أن يقوده إلى النادي فيصبح عضواً لا محالة ، له كافة ما للأعضاء من حقوق ، ولبس سيمون الثياب التي كان يرتديها يوم الاحتفال بتخريج طبيباً ، وقصد المكان الذي عين له في الجبانة وهو يرتجف ، ولكن المتع المتخيلة ولقاء الكونتيسة الحسنة جعله يتجلد ، وأقبل بافلاماكو متنكراً في زي شيطان مرتدياً قناعاً بطل استخدامه الآن تطل منه القرون ، وأخذ يثور ويفور ويلوى عنقه ويثنيه ، وسيمون ينظر إليه في هلع واضطراب ، واستنجد بالله والقديسين عشرات المرات حتى ينجو من هذا الهلع ، واستجاب الله للدعاء وهذا الشيطان وانحنى له فركب ظهره ، وسار الشيطان حتى إذا بلغ المكان الذي يلقي فيه أهل القرية روث الماشية ألقاه فيه وتركه ومضى مسرعاً ، بينما كان برونو

يختبئ في مكان قريب وهو يغالب نفسه حتى لا ينفجر من الضحك .

وعاد الطبيب إلى بيته وهو ينفض عن نفسه الروث ، واستقبلته زوجته استقبالا حافلا وهي توجه له اللوم والتفريع لأنه لقي ما لقيه ولا ريب بسبب خروجه لمغازلة امرأة ، وفي الصباح جاء إلى بيته الرسامان وقد دهنا جسميهما بالطلاء ، وكشفا له عما ادعيا أنها الجراح التي تسبب فيها سيمون بجبته ورعونه فعدما استنجد بالله والقديسين أفسد الخطاة ، وحل بهما العقاب الذي خلف تلك الآثار ، وكان جزاؤهما الطرد من النادي بدلا من أن يشركا في عضويته صديقا عزيزا عليهما ، وخشى سيمون أن يفضحاه بين أهل القرية ، وألح عليهما أن يكتما السر ، ويغفرا له ما بدر منه وما سببه لهما من شقاء ، واعدأ أن يكفر عن خطئه قدر ما يستطيع ، قائلا إنه إذا كان قد عاملهما في الماضي بود وتقدير ، فانه منذ الساعة لن يبخل عليهما بطلب ، وهكذا تمتع الشبان بكرم سيمون الذي يخشى بفضل سداخته أن ينشرا قصة عاره على الناس .

سيمون وإيفيجينيا : قصة حب

حدث منذ زمان أن كان يعيش في جزيرة قبرص رجل ذو أصل عريق وثراء وفير يدعى أريستيدوس ، وكان الرجل يحس ببالح التعاسة من جراء ابنه سيمون ، فرغم ما يتمتع به الفتى من جسم فارح وطلعة ذات حسن ، إلا أنه كان ضعيف العقل ، وعندما اكتشف الأب أن أمهر المعلمين قد عجز عن صب القليل من المعرفة في عقل الابن ، قرر أن يباعده بينه وبين ابنه حتى لا يقع عليه بصره ، وأرسله ليعيش بين العبيد في منزله بالريف .

هناك اعتاد سيمون أن يكدح كما يفعل العبيد ، وأصبح في الواقع على شاكلتهم في خشونة الصوت وفضاظة الطباع ، إلا أنه حدث ذات يوم بينما كان

يجوس خلال المزرعة أن وقعت عيناه على غادة حسناء مستغرقة في النوم فوق العشب الأخضر الكثيف . ومن تحت أقدامها أغفت وصيفتان وخادم من رجالها ، لم يكن سيمون قد رأى قبل ذلك وجه امرأة قط ، فوقف يحملق في الفاتنة مهورا وهو يستند على عصاه ، وقد تسربت إلى ذهنه أفكار غريبة ، وتحركت في أعماقه عواطف لم يشعر بها من قبل ، وظل يتأمل الحسناء فترة طويلة حتى رأى أهدابها تتحرك ، ثم رآها تستيقظ ببطء ، وأحس سيمون بنشوة غامرة تملأ جوانح نفسه ، وقالت الحسناء :

— لماذا تنظر إلى هكذا ؟ أرجوك أن تبتعد عني ،
إني أرتعد لمراك !

وأجابها سيمون حالما :

— لن أبتعد ، إني لا أستطيع !

ورغم أن الفتاة كانت خائفة ، فانه لم يتخل عنها حتى صحبها إلى دارها ، وحينئذ ذهب الفتى إلى أبيه ليقول له إنه يريد أن يعيش كسيد مهذب ، وأنه لم يعد يطبق حياة العبيد ، ودهش الأب عندما اكتشف أن صوت ابنه قد لان واكتسب عذوبة ورقة ، بينما تهذبت طباعه وهشت أساريه ، وغير الأب ثياب ابنه وسربله بملابس تليق بعلو مكانته ، وسمح له بالذهاب إلى المدرسة .

مضت أربعة أعوام منذ وقع سيمون فريسة للحب وقد غدا الشاب أنه شباب قبرص وأكثرهم أدبا وعلماً ، وعندئذ ذهب الشاب إلى والد إيفيجينيا — وذلك كان اسمها — طالباً يد ابنته ، ولكن الوالد أجابه بأن ابنته مخطوبة بالفعل لباسيمونداس ، وهو شاب من نبلاء رودس ، وأن احتفالات الزفاف توشك أن تقام . وهمس سيمون لنفسه في مرارة وهو يستمع إلى تلك الأنباء الأليمة :

— أو اه يا إيفيجينيا ، لقد حان الوقت لأكشف لك عن مدى ولعى بك ! لقد كان حبك هو الذى خلق منى رجلا ، والزواج منك كفى بأن يجعلنى سعيداً وعظيماً كاله ! بك سأظفر وإلا فالموت عزائى !

سارع سيمون إلى بعض أصدقائه من الأشراف طالباً منهم العون فى تدبير سفينة للقتال ، وعلى متن هذه السفينة تابع مسير السفينة التى أبحرت عليها إيفيجينيا قاصدة رودس ، وألقى على السفينة الأخرى بخطاف من الحديد وشدها نحوه حتى تلاقت السفينتان ، ودون انتظار العون من أحد ، قفز سيمون بين خصومه وظل يدافعهم عن نفسه حتى ألقوا السلاح وهو يقول لهم :

— إنى لم آت لسلبكم ، وإنما جئت لأظفر بالحسنة النبيلة إيفيجينيا التى أحبها أكثر من أى شئ فى الوجود ، خلوا بينى وبينها وأقسم ألا ألحق بكم ضرراً ! .

جاءت إليه إيفيجينيا والدموع فى مآقيها فقال لها بركة :

— لا تبكى يا فاتنتى الرقيقة ، أنا أسيرك سيمون ، إن حبي العميق الدائم يساوى أكثر بكثير مما يعدك به باسيمونداس .

ابتسمت إيفيجينيا من بين دموعها بينما كان سيمون يصحبها إلى ظهر سفينته ويبحر بها إلى كريت حيث أهله وأقرباء أصحابه ، إلا أن عاصفة هوجاء هبت خلال الليل وألقت غلالة على جميع النجوم فى السماء . وظلت السفينة تدور حول نفسها حتى ألقت بها العاصفة على شاطئ يقع على سواحل رودس ، وقبل أن تتمكن السفينة من الإقلاع مرة أخرى ، هاجمها باسيمونداس وأخذ سيمون أسيراً ، وقاده إلى كبرى قضاة رودس وكان فى ذلك العام ليزيماخوس الذى أصدر الحكم على سيمون وصحبه بالسجن مدى الحياة بتهمة القرصنة والاختطاف .

وبينما كان سيمون يقاسى مرارة السجن يائساً من أى أمل فى استرداد حريته ، كان باسيمونداس يعد العدة لحفل زواجه من إيفيجينيا ، وكان لباسيمونداس فى ذلك الحين أخ يصغره يدعى هورميسداس ، وكان يرغب فى الزواج من حسناء اسمها كاساندر ، وكان ليزيماخوس كبير القضاة يحب بدوره هذه الأخيرة . ففكر باسيمونداس فى أنه يستطيع أن يوفر قسطاً كبيراً من المتاعب والنفقات لو أنه أقام احتفاله بزواجه وزواج أخيه فى نفس الوقت ، لهذا فقد أعد العدة لذلك مما أثار حفيظة ليزيماخوس وأغضبه أيما غضب ، وبعد طول روية وتفكير تخلى الشرف عن مكانه للحب ، وعزم ليزيماخوس على أن يختطف كاساندر غصباً .

ولكن من يعينه على قضاء مأربه من بين صحابه ؟ هذا ما فكر فيه ليزيماخوس ولم يتردد لحظة فى أن يستعين بسيمون وأعوانه ، خف إليهم فى السجن ليطلق سراحهم ويزودهم بالسلاح ويخفيهم فى منزله ، ثم قسمهم فى ليلة الزفاف إلى ثلاث فرق ، قصدت إحداها الشاطئ لتستولى على إحدى السفن ، بينما عهد إلى الثانية بمراقبة بوابة قصر باسيمونداس ، ونصب من نفسه قائداً للفرقة الثالثة يسانده سيمون ، واقتحمت هذه الفرقة قاعة الاحتفال حيث تقام مراسم الزواج وقتلت العريسين ، وحملت العروسين والدموع فى مآقيهما إلى السفينة التى أبحرت بين تهليل ركابها ومرحهم قاصدة كريت .

وهناك تزوج الشبان من الفاتنتين بين تهنئ الأقارب والأصدقاء ، ورغم أن قتالا عنيفاً قد نشب بين أهل جزيرة كريت وقبرص من جراء فعلتهما الشنعاء ، إلا أن الأمور سويت فى النهاية على خير ما يرجى من سلام ، وحينئذ عاد سيمون مع إيفيجينيا إلى قبرص . وحمل ليزيماخوس عروسه كاساندر إلى رودس ، وعاش الجميع فى خير وسعادة حتى آخر أيام العمر .

جيسيبيوس وتيتوس : قصة صداقة

في الوقت الذي كان يحكم فيه روما أوكتافيوس قيصر - وهو الذي أصبح يلقب فيما بعد الإمبراطور أوغسطس - كان يعيش في روما شاب يدعى تيتوس كوينتوس فلافيوس ، وقد قصد الشاب أثينا ليدرس الفلسفة ، وهناك نمت علاقة صداقة وثيقة بينه وبين شاب من أشراف أثينا يدعى جيسيبيوس ، ودامت العلاقة بينهما ثلاث سنوات وهما يعيشان كأخوين شقيقين ، يدرسان معاً ويعيشان تحت سقف واحد .

وذات يوم وقع جيسيبيوس في غرام حسناء من أثينا تسمى سوفورنيا وتعاهدا على الزواج ، وصحب جيسيبيوس صديقه لزيارة خطيبته قبل الموعد المحدد للزفاف بأيام ، وكانت تلك أول مرة تقع فيها أنظار تيتوس على سوفورنيا ، وبمجرد أن تلاقت نظراتهما وشاهد جالها ، أحس بأنه أحبها حباً لم يسبق لرجل أن أحس بمثله نحو امرأة ، وتأججت العاطفة في قلبه إلى درجة أنه لم يعد يستطيع الأكل أو ينعم بلذة النوم ، وبرز به المرض إلى الدرجة التي أصبح معها غير قادر على النهوض من فراشه ، وحزن جيسيبيوس أيما حزن وأحس بعميق الأسى من أجل ما ألم بصاحبه من سقم ، ولما كان يظن أن هذا البلاء وليد مرض عقلي أصاب صاحبه ، فقد ألح عليه كي يصارحه بسبب شقائه ، ولم يستطع تيتوس أن يخفي الحقيقة عن صاحبه فقال له ملئناً :

- أواه يا جيسيبيوس ، إنني غير جدير بأن ألقب بالصديق ، لقد وقعت في غرام سوفورنيا وهذا العشق يقتلني ، يا لي من شخص ضيع ! ولكني ألتبس منك الصنفح يا صديقي ، سوف ألقى الموت عاجلاً جزاء ما اقترفت من إثم وعدم ولاء !

جمد جيسيبيوس في مكانه برهة وهو مشتت بين حبه لسوفورنيا وولائه لصديقه ، ولكنه استقر آخر

الأمر على أن يرد الحياة لصاحبه ولو كان ذلك على حساب سعادته ، وبعد بضعة أيام عندما أحضرت سوفورنيا إلى بيته حتى يقام حفل الزواج ، تسلل جيسيبيوس بخفة إلى غرفة العروس حيث كانت ترقد سوفورنيا وأطفأ الشموع ، ثم أسرع في صمت إلى تيتوس حيث أنبأه أنه سيكون الزوج ، واعتري تيتوس خجل غامر ورفض أن يذهب إلى العروس ، ولكن جيسيبيوس ظل يقنعه في رفق وعطف حتى اقتنع ، وسار تيتوس على أطراف أصابعه ، ودخل حجرة العروس المظلمة وسألها برقة عما إذا كانت تقبله زوجها ، ولما كانت سوفورنيا تعتقد أنه جيسيبيوس فقد ردت عليه بقولها : « نعم » ، وعندئذ وضع تيتوس في أصبعها خاتماً ثميناً وهو يقول : « وأنا سأكون زوجاً لك » .

وفي الصباح اكتشفت سوفورنيا الخديعة التي كانت ضحية لها ، وتسالت من المنزل لتقص على أبيها وأمها كيف خدعها جيسيبيوس وزوجها لتيتوس ، وكان رد الفعل شديداً في أثينا لما ارتكبه جيسيبيوس في حق سوفورنيا التي تنتمي إلى أسرة من أشراف أثينا . ولكن الأبوين وقد وجدا أن ما حدث لا يمكن إصلاحه وافقا على أن يصحب تيتوس عروسه إلى روما حيث لا تروج أنباء الفضيحة ، ولكنهما قررا بعد رحيل تيتوس أن يقتصا من جيسيبيوس ، وتحالفت ضده عصابة أخذت على عاتقها تلك المهمة ، ونجحت في أن تجرده من كل ممتلكاته مع طرده من أثينا بعد أن صدر عليه حكم بالنفي حتى الموت .

عندما وجد جيسيبيوس نفسه خالي الوفاض لا صديق له ، رحل إلى روما سيراً على الأقدام قاصداً أن يلجأ إلى تيتوس ليلتمس منه العون ، وعندما وصل إلى روما اكتشف أن صاحبه قد صادف الثراء الواسع والجاه العريض ، وأنه أصبح يتمتع بعطف الأمير أوكتافيوس الشاب ، ويعيش في قصر منيف ، ولم يجرؤ جيسيبيوس

على أن يلج باب القصر وهو في أسفاله البالية ، وقنع بالوقوف كالشحاذ أمام البوابة على أمل أن يمر صديقه فإراه ويبادل له الحديث ، ولكن تيتوس كان يخرج في كل مرة مندفعاً من القصر ، ولم يبطئ في سيره مرة واحدة حتى يراه ، وخيل لجيسيوس أنه بات محتقراً من صاحبه ، ففضى في سبيله محسوراً مكدوداً .

سار جيسيوس في شوارع روما على غير هدى حتى فاجأه الظلام بالقرب من مغارة تواعد اللصوص على الالتقاء فيها ، واستلقى جيسيوس على الأرض الصلبة واستسلم لسبات عميق ، وبينما كان يغط في نومه جاء لصان يحملان ما غنماه من أسلاب ، واختلفا على اقتسام المسروقات ونشب بينهما شجار عنيف ، وسقط أحدهما قتيلًا بينما فر القاتل متستراً بالظلام ، حتى إذا كان الصباح اكتشف أحد الحراس الجثة وجيسيوس غير بعيد عنها ، فألقى القبض عليه .

استسلم جيسيوس لقدره ، واعترف بأنه القاتل حتى يلقى الموت بهذه الطريقة بدلا من أن يقضى على نفسه بنفسه ، وإزاء اعترافه أصدر القاضي الحكم بصلبه ، وكانت تلك هى وسيلة الإعدام فى ذلك الحين .

وتشاء الظروف العجيبة أن يكون تيتوس موجوداً فى قاعة المحكمة بطريق المصادفة ليتولى الدفاع عن رجل فقير ، وتعرف فى الحال على جيسيوس واعتزته الدهشة البالغة من جراء ما حدث لصاحبه من سوء المصير ، وقرر أن ينقذ صاحبه مهما كلفه ذلك من ثمن ، ولكن القضية كانت قد قطعت شوطاً بعيداً وليس أمامه سوى حل واحد ، ولكن تيتوس لم يتردد برهة ، فقد تقدم من منصة القاضي بخطى ثابتة وقال بين دهشة جميع الحاضرين :

— أرجوك أن تسحب حكمك ، هذا الرجل برئ ، أنا القاتل !

تطلع جيسيوس حوله فى دهشته ليرى تيتوس أمامه ، وأدرك أن صاحبه يحاول أن ينقذ حياته بدافع من الصداقة القوية ، وقرر بدوره ألا يقبل هذه التضحية فقال للقاضى :

— لا تصدقه يا سيدى ، أنا القاتل ولا يستحق العقاب سوى !

دهش القاضى دهشة بالغة وهو يرى رجلين يسعى كل منهما إلى حتفه ليفوز بالصلب كما لو أنه شرف لا يعد له شرف فى الوجود ، وفجأة ، اندفع واحد من عتاة اللصوص كان يتابع المحاكمة ليقول بين دهشة الجميع :

— لقد مست هذه المناظرة الغريبة شغاف قلبى ، ومن ثم سوف أعتزف لكم بكل شئ ، لا يمكنك يا سيدى أن تصدق أن واحداً من هذين الرجلين يمكن أن يرتكب الجريمة ، فما الذى يدفع سيداً من عليّة القوم أصحاب الثراء الواسع كتيتوس إلى الذهاب إلى مغارة تختلف إليها اللصوص إنه لم يذهب قط إلى المكان ، أما هذا الغريب البائس ذو الثياب المهلهلة فقد كان نائماً فى الوقت الذى وصلت فيه مع صاحبي إلى المغارة ، واللصوص — كما تعلم يا سيدى — يختلفون فى بعض الأحيان ، خصوصاً إذا كانت الغنيمة ثمينة ، وقد كان هذا عين ما حدث البارحة ، فشرعت مديتى لأضع حداً للنزاع .

وقد كان ظهور رجل ثالث يعترف بالجرم مما زاد من حيرة القاضى ، فقرر أن يعرض القضية على أوكتافيوس قيصر ، واستدعى قيصر الرجال الثلاث فثلوا بين يديه ، وعندئذ أفضى إليه تيتوس وجيسيوس بقصة صداقتهما الغريبة ، وفى الحال أصدر أوامره باطلاق سراحهما ، وإكراماً لهما أصدر العفو عن اللص القاتل .

وحينئذ صمم تيتوس على أن يعود معه جيسيوس إلى قصره ، وأرغمه على قبول نصف ثروته ، وزوجه

من أخته فلافيا وهي شابة ذات حسن وسحر وفتنة طاغية
وحتى آخر أيام عمرهم ، عاش تيتوس وسوفورنيا ،
وجيسيوس وفلافيا فى سعادة ورخاء ، يجمعهم فى
روما نفس القصر ، ولم يكن يمر يوم حتى يضيف إلى
سعادتهم ما يملأ القلوب غبطة وهناء .

الخواتم الثلاثة : قصة ذكاء

كما ثار الكثير من الجدل حول الدين فى فلورنسا
إبان الفترة التى اجتاحتها فيه الوباء ، فقد أعاد ذلك إلى
ذاكرتها قصة ميلشيزديك . . كان الرجل من أثرياء
اليهود يعيش فى الإسكندرية أيام حكم السلطان العظيم
صلاح الدين ، وكان السلطان فى مسيس الحاجة إلى
المال بعد أن استنزفت الحروب كل ما كان فى خزائن
الدولة من أموال ، وقرر صلاح الدين أن يحتال على
اليهودى ليجرده من ثروته ، فبعث إليه رسولا يستدعيه
وعندما مثل اليهودى بين يديه قال له السلطان :

— لقد سمعت أنك من الحكماء فى مسائل الدين ،
وأريد أن أعرف منك أى الأديان تراه الدين الحق :
اليهودية أم المسيحية أم الإسلام ؟

أدرك اليهودى أن صلاح الدين يريد أن يورطه ،
فلو أنه أجاب بأن اليهودية أو المسيحية هى الدين الحق ،
فلا بد أن ينتقم منه السلطان ويحكم عليه بعدم الولاء ،
ولو أنه صرح بأن دين الإسلام هو الدين الأفضل ،
لطالبه بأن يتنازل عن جزء من ثروته للدولة مثلاً يفعل
المؤمنون ، وتردد اليهودى وأعمل فكره لينجو من
ورطته ، ثم أجاب بقوله :

— كان يعيش فى قديم الزمان يا مولاي رجل
ممتلك خاتماً ذا رونق كبير ، وقيمته ذات بال ، وقد
أعلن فى وصيته أن الابن الذى يترك له هذا الخاتم يصبح
رب الأسرة من بعده ، وأن أبناء هذا الابن يسيطون
حكمهم على أحفاد أبنائه الآخرين .

وظلت رغبة الأب تنفذ على مدار أجيال كثيرة ،
ولكن الخاتم كان فى النهاية من نصيب رجل له ثلاثة
أبناء ، وكان كل منهم فاضلاً شديداً للولاء لأبيه ،
ويحب الأب أبنائه جميعاً على قدم سواء :

ولما وجد الأب نفسه غير قادر على أن يفضل ولداً
على ولد ، طلب الرجل من أحد الصناع الماهرين أن
يصنع له خاتمين آخرين على غرار الأول ، وجاء
الخاتمان مشابهيْن له إلى درجة يصعب معها التمييز بين
أيهما الحقيقى ، وعندما حضرت الأب الوفاة دعا كل
واحد من أبنائه على انفراد ، وسلم كلا منهم خاتمه ،
وبعد الوفاة ادعى كل من الأبناء أنه وريث الأب فى
حكم الأسرة ، ولكى يدعم كل منهم رأى بالحجة
أخرج خاتمه الذى تلقاه من أبيه ، ولكن الأختام كانت
متشابهة إلى الدرجة التى لا يمكن التمييز بينها ومعرفة
الأصيل منها ، ولم يستطع حتى هذه اللحظة أن يحسم
الأمر إنسان ، وهكذا حدث بالنسبة للأديان الثلاثة
التي صدرت عن الرب يا مولاي : اليهودية والمسيحية
والإسلام ، يظن كل من أصحابها أنه وريث الرب
العالى ، ولكن الأمر بينهم غير مؤكد كما كان بالنسبة
للخاتم الأصيل .

اغتبط صلاح الدين أشد الاغتباط وأعجبه الرد
الذى استطاع ميلشيزديك أن يتخلص به من الفخ الذى
أعده له ، وبدلاً من أن يستولى السلطان على أموال
اليهودى قسراً كما قدر قبل أن يستدعيه ، رغبه فى أن
يقدم له المال على سبيل القرض ، واستجاب ميلشيزديك
لهذا الرجاء ، وسرعان ما رد له السلطان الدين وأغدق
عليه العطايا والمنح ، بالإضافة إلى ما خلعه عليه من
منصب كبير ، واتخذه له صاحباً فى مجلسه .

جربيلدا : قصة زوج صابرة

قضى الفرسان والحسان أمتع الأوقات فى الرقص
والغناء ورواية القصص . وعندما انحسرت موجة الوباء

عن فلورنسا ، عاد الجميع إلى المدينة ، ولكنهم قبل أن يبدؤوا رحلتهم إليها قص عليهم ديونيو قصة بالغة الغرابة شديدة التأثير ، قال ديونيو :

جری الرجال على أن يلصقوا بالنساء تهم التقلب وعدم استقرار العاطفة ، ولكن يحضر ذاكرتي قصة تدل على ثبات عاطفة المرأة ، وقسوة الرجل ، ولا أشك في أنكم سوف ترحبون بالاستماع إليها .

كان المركز جوالتيرى الحاكم الشاب لمدينة ساليرنو مؤمناً بأن النساء قلب لا أمان لهن ولا ضمان لاستقرار عواطفهن ، ومن أجل هذا السبب أضرب عن الزواج ، واكتفى من متع الحياة بالصيد والقتل ، إلا أن رعاياه لم يكونوا راضين عن مسلكه هذا خشية أن يموت دون وريث فيتركهم بلا سيد ، ومن ثم كانوا يلحون عليه في الزواج ، وقطعوا في ذلك شوطاً بعيداً إلى حد أنهم عرضوا عليه في النهاية أن يختاروا له الزوج المناسبة ، وأغضبه ذلك أشد الغضب فقال لهم :

— إذا رغبت في اتخاذ زوجة أيها الأصدقاء فاني سأختارها بنفسى ، ومهما كان أصلها أو البيت الذى نشأت فيه فأنتم مطالبون بتقديم واجبات الاحترام لها بما يليق بمقامها كزوج لمولاكم ، وإلا فانكم سوف تلمسون بأنفسكم كم يشقيني أن اتخذت زوجاً حيث لم أكن أريد .

بعد ذلك ببضعة أيام بينما كان المركز يمتطي صهوة جواده ماراً بقرية غير بعيدة عن موقع القصر ، لمح ابنة أحد الرعاة تنقل الماء من البئر إلى منزل أبيها ، وسألها المركز عن اسمها وأجابته الراعية الحسنة :

« جريزيلدا » . وقال لها مركز ساليرنو :

— حسن يا جريزيلدا ، إنى أبحث عن زوجة ، ولو أنى تزوجتك فسيكون من واجبك أن تتعلمي كيف تعملين على إرضائي وتنفيذ كل مطالبى مهما كانت غرابتها ، دون أن تند عنك همسة اعتراض أو نظرة اكتئاب .

وأجابته جريزيلدا بقولها :

— نعم يا مولاي .

وعلى الفور أرسل المركز بعض خدমে ليشتروا بعض الثياب الفاخرة ، وارتدت جريزيلدا الثياب الغالية ، ووضع المركز على رأسها إكليلاً من الزهور ثم صحبها إلى القصر ، وأقام حفلة رائعة للزواج كما لو أنه كان يعقد زواجه على ابنة ملك فرنسا ، وأثبتت جريزيلدا أنها زوج طيبة ، فقد كانت ذات أخلاق دمثة وطباع رقيقة إلى الدرجة التى خيل لزوجها أنه أصبح أسعد رجال العالم قاطبة ، وقد أولاه رعايا زوجها ما يليق بمكانتها من التقدير والاحترام ، وأحبوها حباً جمّاً ، ولشد ما كانت فرحتهم عندما أنجبت لهم طفلة حسنة .

ولسوء الحظ داخل زوجها شعور مبهم ، فقد خيل إليه أنها تتصرف بهذه الرقة والطيبة لأن الريح التى صادفتها كانت مواتية ، وقر عزمه على أن يمتحن قدرتها على الصبر عن طريق الأذى ، لذلك أنبأها أن رعاياه مستاءون لأنه اختار زوجاً وضيعة الأصل ، وأنهم يتهايمسون فيما بينهم لأنها أنجبت له طفلة ، وأجابته جريزيلدا بقولها :

— إنى أعلم يا مولاي أننى وضيعة الأصل ، وأن أقل رعاياك يفضلى نسباً ، وأنى غير جديرة بالشرف الذى أسبغته على ، وإنى لأرجو أن تتصرف على الوجه الذى يصون شرفك ويحقق سعادتك دون ماتفكير فى صالحى .

وسرعان ما وافى جريزيلدا أحد خدم المركز قائلاً لها :

— سيدتى ، إما أن أفقد حياتى أو أنفذ مشيئة مولاي ، لقد أصدر إلى سيدى أوامره بأن آخذ ابنتك و

لزم الخادم الصمت ولم يزد حرفاً ، وظنت جريزilda أن ما صدر إليه من أوامر يقضى بقتل ابنتها ، ولم تردد في أن ترفعها من المهد لتقبلها برقة ثم تلقى بها بين يديه ، وأرسل المركز ابنته الصغيرة إلى واحد من أقربائه في بولونا لتنشأ هناك وتتلقى تعليمها . وبعد بضع سنوات أخرى أنجبت جريزilda ولداً ، وكان ذلك من بواعث سعادة المركز عندما علم أنه رزق بوريث ، ولكنه تمشياً مع خطته قرر حرمان الأم من مولودها فقال لها :

— لم يعد في مقدورى أن أواصل الحياة مع رعاياى لأنهم يقولون إنهم لا يتسامحون في أن يكون حفيد أحد الرعاة سيداً عليهم في المستقبل ، ولا بد لي من التخلص من هذا المولود كما فعلت مع سابقه .

وأجابت جريزilda بقولها :

— مولاي ! افعل ما تراه أفضل وأدعى لسعادتك دون أقل تفكير في صالحى ، إنى لا أجد ثمة ما يسعدنى فيما يسبب لك الشقاء .

وفي اليوم التالى أرسل المركز ابنه حيث أرسل ابنته من قبل ، وظن رعاياه أن الأب قد حكم على ولديه بالموت ، ووجهوا إليه شديد اللوم على ما تبدى من قسوته ، ولم يتوانوا عن إظهار عطفهم على الزوجة ولكن جريزilda لم تكن لتسمح لهم بتقريع زوجها ، بل كانت تلتمس له الأعذار .

ورغم كل ذلك فلم يكن المركز قد اقتنع بعد باخلاص زوجته ، وبعد مرور ستة عشر عاماً على زواجهما قرر الزوج أن يضعها أمام اختبار جديد فقال لها :

— أيتها المرأة ، لقد قررت أن أتخذ لى زوجة أخرى ، وسوف أعيدك إلى كوخ أبليك على نفس الهيئة التى كانت لك قبل الزواج ، وسيكون اختياري لزوجة من نفس طبقتي .

وبذلت جريزilda جهداً كبيراً كي تغالب دموعها ونكست رأسها في تواضع ووافقت على الطلاق ، وجردها المركز من ثيابها الفاخرة لترتدى الأسهل ، وقبل أن تسلك طريق العودة إلى كوخ أبيها ، أخبرها المركز أنه سيتزوج من ابنة كونت ياناجو ، وقال لها :

— إنى على وشك أن أبعث في طلب العروس الجديدة ، ولكنى أفترق إلى وصيفة تقوم باعداد الغرف والإشراف على الترتيبات اللازمة للاحتفال ، ولما كنت خبيرة بمسالك القصر ، أرى أن تقوى بالخدمة كوصيفة في القصر يوماً أو يومين ، عليك أن تنظمى كل شئ وتوجهى الدعوات إلى السيدات اللائى سيحضرن الحفل ، وعندما تم مراسم الزواج يتحتم عليك أن تعودى إلى كوخ أبليك .

وكانت تلك الكلمات بمثابة طعنات الخنجر التى أدمت قلبها ، فلم يكن من المستطاع أن تنزع حب زوجها من قلبها بالسهولة التى احتملت بها تخلى الخد والسلطان عنها ، وأخذت جريزilda تجول في ردهات القصر في ثيابها الحقيبة وهى تشارك الخدم في أعمالهم ، تكنس الحجرات وتنظف الأثاث ، وعندما أتمت عملها قامت بتوجيه الدعوات إلى سيدات المقاطعة اللائى سيحضرن الحفل ، وفي اليوم الحدد شاركت في استقبال المدعوين في ثيابها الخشنة ، ولكن بوجه مشرق ونظرات حانية ، ووصل المركز في الساعة المحددة متأبطاً ذراع الزوجة الجديدة التى كانت آية في الحسن حقاً ، وعندما فرغ المركز من تقديمها لجميع الضيوف الذين هنأه أغلبهم على حسن توفيقه في الاختيار ، قال وهو ينظر باسمها إلى جريزilda :

— ما رأيك في عروسى ؟

— مولاي ! إنى أحبها حباً لا مزيد عليه ، ولو أنها كانت عاقلة مثلما هى رقيقة ، فلا شك أنك ستكون أسعد الناس معها ، ولكنى أرجو مخلصاً ألا تنهج مع

هذه السيدة الوديدة مثلاً سلكت مع زوجك السابقة ، لأنها من أصل رفيع وهى فى ريعان الشباب ، وقد رببت خير تربية ، بينما نشأت الأخرى لتجالد ضراوة الحياة .

وقال المركز برقة :

— اصفحى عنى ! اصفحى عنى ! اصفحى عنى !
عنى ! إنى أعرف مدى ما عاملتك به من غلظة
يا جريزيلدا ، ولكنى لم أكن أو من باخلاص النساء
وثبات عواطفهن ، ولم أكن لأصدق حتى أثبتت لى
عكس ما اعتقدت ، اسمح لى فى دقيقة واحدة من
اللحظات السعيدة أن أصلح بعض خطئى . وأن أرد
لك كل ما حرمت عليك من سعادة طوال السنين
الماضية ، هذه الشابة الحسنة هى ابنتك وابنتى
يا عزيزتى جريزيلدا ! وانظرى ! هذا هو ابنك
ينتظر من خلفها !

وقاد المركز جريزيلدا من ذراعها وهى تبكى من
الفرح إلى أبنائها ، حينئذ وقفت جميع المدعوات

وصحبها إلى حجرتها لتبديل ثيابها وترتدى أفخر ما لديها
من الثياب اللاتقة ، ولأزمنها بضعة أيام وهم يحتفلون
ومرحون ، وبعث المركز إلى أبها الراعى الفقير ،
وأقطعه جناحاً من القصر ليعيش مع ابنته وأحفاده .
وزوج ابنته ، وعاش الجميع فى أتم ما يكون من السعادة
والصفاء .

* * *

كانت هذه القصة الأخيرة مثار الإعجاب الشديد
للشاعر الإيطالى المعاصر بترارك إلى درجة أنه كان
يحفظها عن ظهر قلب ، واستعان تشوسر بفكرتها فى
ترويلوس وكريزيد ، وقد أثرت قصص الديكاميرون
فى الكتاب المعاصرين لبوكاشيو ، ومن جاءوا بعده إلى
يومنا هذا ، وكما عاش كثير من الكتاب على فتات
مائدة هوميروس ، فقد حظيت قصص الديكاميرون
بنفس المنزلة وقدر لها الانتشار الواسع ، وكانت مصدر
إلهام كذلك لدرايدن وكيثس وتينسون ، وترجمت
القصص إلى كل اللغات لتكون متعة للقراء على الدوام .

